قوت القلوب

لوازم الطريق إلى سلامة القلب

ذ.عبد الواحد مستعديل

نقرأ قول الله عز وجل: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وقوله:﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[2] وقوله:﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾[3] فنجد أنه يدعونا إلى الإسراع والسباق إلى مغفرة من عنده وجنته وإلى الفرار إليه لنفوز، وفي هذه الأوامر الثلاثة حركة وسير. ويقول الله تبارك وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام:﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[4]. لم يقل سبحانه عز وجل أتى الله بعلم ولا أتى الله بعمل، لكن أتى الله بقلب سليم. إذن فحركة المسارعة والمسابقة والفرار سير إلى الله بالقلب لا بشيء آخر على الطريق المؤَدية إلى سلامة القلب والفوز بالمولى الكريم.

وفي قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[5] إشارة أن القلوب المريضة والقاسية لا تعرف ولا تستطيع أن تسير إلى الله لأنها تنصرف عن الأغذية النافعة الموافقة لها والأدوية الشافية إلى ما يضرها أو يزيد من دائها. وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء وفيه الدواء.

يحتاج سالك هذا الطريق إلى لوازم ضرورية هي من أمهات خصال الإيمان مندمج بعضها في بعض، فتُبلّغ قلبه إلى سلامته وتمكّن من صيانته وزيادة رقيه وقربه من ربه إلى غاية وصوله.

---

[1] سورة آل عمران 133
[2] سورة الحديد 20
[3] سورة الذاريات 50
[4] سورة الشعراء 87-89
[5] سورة الحج 52-53

1. دوام اليقظة وتجدد التوبة:

بداية حياة القلب انتباه من الغفلة واستجابة لداعي الفلاح. تبدأ بعدها يقظة روحية تسهر على حمايته وثباته في صفوف التائبين، ثم ترقيه في مدارجهم. ذلك أن التوبة توبات، وبينها ما لا يعد ولا يقاس من الدرجات حتى قيل: "شتان بين التائب من الزلات، وبين التائب من الغفلات، وبين التائب من رؤية الحسنات"[6] وهذا لا يتأتى إلا في بيئة صحية مساعدة غير موبوءة الأجواء، وتحت عناية خاصة بعد عناية الله تعالى؛ فإذا انعدمت الشروط السابقة حلّت بالقلب العدوى من عوامل المحيط الضارة والمهلكة إذ العوائق التي تحُول دون دوام الصحة كثيرة وشديدة. وهذه سنة الله في خلقه إذ كلما عَظُمَ المطلوب وَشَرُفَ كثرت العوارض والموانع دونه، «لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا العوائق والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ولكن الله يفعل ما يريد»[7]. فانظر إلى الجنة وعِظَمِها، وإلى الموانع الحائلة دونها، حتى أوجَبَتْ -كما قيل- أن ذهب من كل ألفِ رجل واحد إليها.

وأهم ما في البيئة عُمَّارها خصوصا إذا كانوا من طلاب الآخرة مريدي وجه الله تعالى، لذا قال اللطيف الخبير للمصطفى السليم القلب لنتعلم نحن: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[8]. وقال عز من قائل موجها كل مستهد به: ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾[9] و"المنيب إلى الله هو المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه في كل وقت، المتقدم [السابق] إلى مَحابّه"[10]. ولكل صادق في طلب التوبة الشاملة يقول الأستاذ عبد السلام ياسين: "تكون التوبة ذات الدلالة الأعم أدعى إلى السير الحثيث صعودا في عقبة الإيمان والإحسان إن تطهر العبد بماء التوبة يستفيضه من المنيبين ورشف من ذلك الماء رشفات تذيقه حلاوة الإيمان، فيستزيد ويستزيد حتى تنفر نفسه من المعصية، وحتى يكون الاستغفار واليقظة التامة في كل صغيرة وكبيرة من أعماله رفيقين دائمين"[11].

---

[6] قول للعز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء.
[7] ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين ص336
[8] سورة الكهف 28
[9] سورة لقمان 15
[10] ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين ج1ص434
[11] عبد السلام ياسين، الإحسان ج1ص120

2. الصدق والإخلاص:

الصدق والإخلاص من أعمال القلب وهما من أعز الشروط في السير إلى الله تعالى و" الفرق بينهما أن للعبد مطلوبا وطلبا، فالإخلاص: توحيد المطلوب، فلا يكون المطلوب منقسما [فيحصل بذلك انقسام القلب بين شركاء، قال تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشركة". ومن أضداد الإخلاص الشرك والرياء]. والصدق: توحيد الطلب، فلا يكون الطلب منقسما [فيحصل به انقسام واختلاف سريرة العبد عن علانيته ومن أضداد الصدق النفاق والكذب]. فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب"[12].

إن النفوس مملوءة بالعلل والأغراض والحظوظ التي تمنع الأعمال أن تكون خالصة لله، وأن تصل إليه. وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه أحد البتة، وهو غير خالص لله. ويعمل العمل والعيون تحيط به وترقبه، وهو خالص لوجه الله (قيل في مثل هذا: كما لا تحركه عين دابة تنظر لا تحركه عين بشر). ذلك "أن بين الأعمال وبين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب. فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة..ثم بين القلب والرب مسافة. وعليها قطاع تمنع وصول الأعمال إليه، من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة. وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى: سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل ، وخمود العزم، وفتور الهمة "[13].

والأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من صدق وإخلاص، ومن محبة وتعظيم لذي الجلال والإكرام. فتكون لعَمَلَين صورة واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض. فالعباد – مثلا- في الصلاة جماعة واحدة لكن حظوظهم من هذه الصلاة مختلفة، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدا، وبين صلاتيهما ما لا يحصيه إلا الله تعالى من التفاوت، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل، وللإقبال نيات ودرجات، والآخر ساه في أعماق الغفلات.

[12] مدارج السالكين ج1 ص109
[13] مدارج السالكين ج1 ص439

3. ذكر ومحبته:

بالإيمان تزداد المحبة لله وكلما قوي إيمان العبد اشتدَّ حبه لله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[14] وبالذكر يقوى الإيمان. ويتجدد أكثر ما يتجدد ويتقوَّى بقول لا إله إلا الله مع السؤال والتضرع إلى الجواد الكريم. فقد جاء في الحديث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إن الإيمان يَخلُق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم"[15]. وفي حديث آخر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "جددوا إيمانكم!" قيل: يا رسول الله! وكيف نجدد إيماننا؟ قال:" أكثروا من قول لا إله إلا الله"[16] "المطلوب قولها قولا لسانيا، التكلم بها بكل بساطة وفطرية. في لفظها المقدس سر وكيمياء بهما ينفذ الإيمان إلى القلب"[17].

ذكر الله ومحبته يغذي الواحد منهما الآخر، فتفتل المحبة في حبل ذكر القلب ربَّه فلا يفتر ولا يسأم ولا يأنس بغيره إلا بمن يدُله عليه أو يُذكّره به أو يذاكره فيه. ويشتاق إلى ذكر ربه كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب. ذلك أن الذكر يقوي محبته لمولاه ويفتح له باب مجالسته، ألم يخبره المصطفى سيد الذاكرين واليقظين ـالذي كانت عينه صلى الله عليه وسلم تنام وقلبه لا ينامـ رواية عن ربه: "يقول الحق تبارك وتعالى فيه: أنا جليس من ذكرني" وفي حديث آخر: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم. وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"[18]. " جل الله! ما أعظم كرمه ورحمته بنا، يعرض علينا صحبته وأن يكون معنا، وأن نتقرب إليه فيتقرب منا وأن نسير إليه ليسارع إلينا"[19].

ولقد باح كثير من العارفين الذين ذاقوا حلاوة الذكر وشربوا من كؤوس المحبة بأسرارهم، فأخذوا يصفون مكنون أحوالهم ينصحون لنا ويشوقون، فقال أحدهم: "مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل: وما أطيب ما فيها قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته ". وقال آخر: "إنه ليمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب ". وقال آخر: "والله ما

---

[14] سورة البقرة 165.
[15] رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير والحاكم
[16] رواه أحمد ورجاله ثقات، ورواه الطبراني عن أبي هريرة
[17] عبد السلام ياسين، الإحسان ج1 ص267
[18] رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجة
[19] عبد السلام ياسين، المنهاج النبوي ص157

طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته" وقال آخر: "حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت والعيش الهني الحياة مع الله تعالى لا غير"[20].

وفي بيان علامات ثبوت المحبة في القلب قال الإمام أبو حامد في إحيائه: "اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس مهما ادعت محبة الله ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة"[21] ومن هذه العلامات ذكر:

ـ حب لقاء الحبيب...فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول، و"من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه"[22].

ـ أن يكون مؤثرا ما أحبه الله على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب إتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل. وفي الإقبال على محاب الله الفضل الكثير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله قال: ﴿من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب [والعكس بالعكس فمن يوالى ويحب في الله وليا فهو يعده بالحب والقرب و"أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله﴾[23] و"أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله"[24]، وهذا مما افترضه الله على عباده]. ﴿وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته﴾[25].

ـ أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره وذكر ما يتعلق به؛ فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه.

ـ أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه.

---

[20] ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان ج1ص72
[21] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ج4ص346-357
[22] متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة
[23] رواه الطبراني عن عبد الله بن عباس مرفوعا
[24] أخرجه أبو داود عن عمر بن الخطاب مرفوعا
[25] رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه

- أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل. ويعظُم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة.

- أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها.

- أن يكون مشفقا على جميع عباد الله، رحيما بهم، شديدا على جميع أعداء الله تأسيا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم فقد وصفهم الله في كتابه: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[26].

[26] سورة الفتح 29.